٣ - عمرو بن العاص

بقلم حسين مؤنس

والآن ، فيم طول التفكير وبعد التقدير ، وقد صار الأمر لعلي ، واستقامت البيعة له في الحجاز ، وتراءى سلطانه إلى العراق ، وامتدت خلافته فشملت مصر ، وأولئك هم ولاته تَرِدِي بهم الابل خفافاً إلى ولاياتهم ، وهؤلاء صحابه وأنصاره يبثون في النفوس ظلالا من الخوف والرعب بعد الذي كان من قتلهم عثمان ، وإن عمراً ليحس مطالع هذه الخلافة الجديدة في شيء من الشك وقلة التقدير ، وإنه ليجد انقباض نفسه عن طاعتها ورغبتها عن العمل في ظلها ... بل إنه ليعمل الفكر ليجد من سلطانها مخرجا ومن طاعتها مهرباً ... ولعله يستوي في هذا مع أترابه من الصحابة والقادة ... ولعله كان يرجو أن يتصل ببعضهم ليستطلع فكره وليبادله الرأي ... وربما ود لو يتصل بعلي نفسه ، إذن لأقنعه بالتخلي عن هذه الطوائف القلقة التي وصل حباله بحبالها ، والتي تضر بقضيته كل الضرر ... فان في هذه الطوائف لنفرا لا زال دم عثمان يجري على أيديهم ، وإن فيهم لأوشابا لا يليق بالخلافة أن تتصل بهم ويكونوا عدتها في الفتح والجهاد ، وإن فيهم لأحداثاً لا يستقيم بهم الأمر ، ولا يحسن أن تكون بأيديهم أمور العباد ؛ وماذا عسى ابن العاص أن يفعل مع هؤلاء وهو يرجو أن يكون سيداً لا مسوداً ، وقائداً لا مقوداً ، ثم هو يريد قبل ذلك « أن يشترط » ، فما ينبغي لمثله أن يخطو دون أن يقدر الخطر موضعه ... أو يمضي دون أن يعلم أين يؤدي به السير ، أو يعمل دون أن يقدر ربحه وخسارته من هذا العمل الذي هو مقبل عليه ... أليس هو القائل : « الكرار في الحرب ، وإني الصبور على غير الدهر ، لا أنام عن طلب ؛ كأنما أنا الأفعى عند أصل الشجرة ؛ ولعمري لست بالواني أو الضعيف ، بل أنا مثل الحية الصماء ، لا شفاء لمن عضته ، ولا يرقد من لسعته ، وإني ما ضربت إلا فريت ، ولا يخبو ما شببت ...»

أليس هو الفاتح النابغة ، والسائس الذي لا يشق له غبار ... فما باله يثقل قياده طائعاً ، ويقدم نفسه مختاراً ... كلا ... وليكن له في الميدان الجديد شأن عظيم ... فما هؤلاء الذين يتولون الأمور إلا أترابه ولداته الذين لا يفضلونه في ماض ولا في حسب ولا مقام ... والذين لا يساوونه في مكر ولا سياسة ولا تدبير ... فقيم يكون ذنباً والرؤوس لا تزيد عليه شيئاً ؟ وفيم يؤمر وهو من طبيعة الآمرين ؟ .. ولو أن علياً بعث اليه يستعين برأيه ويستنير بفكره ؛ إذن لقام إلى جانبه وأخلص له المودة ، وأفاده الفائدة العظيمة ، فانه « شيخ يضر وينفع » كما يقولون في بعض مايدس عليه من الشعر ؛ ولكن علياً منصرف عنه لا يكاد يذكره ، وهذه شهور تنطوي على خلافته وهو مستقل بنفسه وأصحابه ، ما يلقى إلى أحد من الصحابة بالاً ... بل ها هوذا يؤدب العصاة منهم وينهض لهم بالسيف ... وهذه الأخبار تتراءى عن الهزيمة النكراء التي منيت بها عائشة ، والقتلة القاسية التي صار اليها الصحابيان طلحة والزبير ... وماذا بعد ؟ .... أغلب الظن أن دوره مقبل ولا ريب ، وأنه يخير بين الطاعة أو الحرب عن قريب فاذا تراه فاعلا ؟ ... هنا كان الرجل يحس قلقاً شديداً ... فيقلب فكره ويتأمل حاله ، علّه ينتهي إلى رأي يستقر اليه ... ثم خطر بباله فسأل نفسه : ومعاوية ؟ ... كيف ترى حال معاوية ... أغلب الظن أن ابن أبي طالب لن يعفيه ، وهو وال على الشام وما حواليه ... وإنه لمرسل اليه بالطاعة أو عازله ... ثم بدا له خاطر جديد فابتسم ... وهم من مجلسه ومضى يذرع الترفة جيئة وذهاباً ... إنه يفكر في معاوية ... ويحسب الأمر حساباً دقيقاً ؛ إن لمعاوية جندا كثيفاً ، ونفرا أقوياء ... وإنه لفي منعة بأهل الشام ومال الشام ... ومن يعرف فضل جند الشام كعمرو الفاتح المجرب الخبير ؟ إن فيهم لخيراً ، وإن عليهم لمعتمدا ... وإنهم ليفضلون جند العراق وجند الجزيرة ... ولهم ليثبتون في الحرب ثباتاً عظيما ... فلم لا يعتمد عليهم ويستفيد منهم ؟ ولم لا تكون جبهة قوية من جند الشام وقدرة معاوية وحيلة عمرو ... فما عسى أن يفعل جند العراق وشجاعة علي وتهور أنصاره أمام هؤلاء ... فاذا فرغ من ذلك الحساب والتقدير فقد هم يريد ليذهب لمعاوية ليرى رأيه في ذلك الأمر ، وإنه لكذلك إذا طارق قد أقبل ، وإذا به رسول من معاوية ! ... يحمل إلى عمرو

كتاباً ... ويبتسم ابن العاص، فقد فهم ما في الكتاب؛ وما يقصر مثله عن ذلك وقد قدر الأمر كله كما رأينا ... ثم يتناول الكتاب، فاذا به يقول: «أما بعد فانه كان من أمر علي وطلحة والزبير ما قد بلغك، فقد قدم عليّ جرير بن عبد الله في بيعة علي، وحبست نفسي عليك حتى تأتيني، فأقدم على بركة الله تعالى[1]»

الآن يستطيع ابن العاص أن يمضي عن ثقة، فقد عرف ابن أبي سفيان قدره واستنجد به، وفي استطاعته الآن «أن يشترط»، وأن يطلب ما يريد من أجر وجزاء ... وهل هو يرجو إلا مصر وخيرها وأمنها ... وهل هو واجد في مناصب الدولة منصباً هو آمن أو أحسن من ولاية مصر الفياضة بالخير والبركات ... بلى وإنها لأجدى على صاحبها من الخلافة نفسها ... فما يغنم الخليفة إلا التعب والجهد في غير طائل ... وما جزاؤه من ملكه الواسع إلا أن يتوسد القبراء، فاذا رق ومال إلى الدنيا كان نصيبه القتل دون رحمة ولا غفران. ثم أي مكان هو أعز من هذا الركن الأمين الذي لا يصله الجند إلا بمشقة، ولا يقصر في أمر يطلبه الخلفاء ... الخير الخير إذن في المبادرة إلى جانب معاوية والانضمام لرايته، والحزم الحزم في الاسراع اليه والوقوف في صفه فما في هذا خطر ولا خوف ... وليزود نفسه من رأيه باستشارة ابنيه محمد وعبد الله ... فقد عود نفسه أن يدقق الحساب جدا ... وألا يترك ناحية من نواحي الرأي ولا مذهبا من مذاهب الفكر إلا بحثه ووزنه وزناً دقيقاً؛ وهاهو ذا يستمع إلى ابنه عبد الله ... إنه ليلومه في ذلك لوماً شديداً، ويرده عن هذا الجشع الذي تحدثه نفسه به: «أيها الشيخ، إن رسول الله قد ذهب وهو عنك راض، ومات أبو بكر وعمر وهما عنك راضيان، فلا تفسد دينك بدنيا يسيرة تصيبها مع معاوية» ... وإن محمدا ليستحر من أخيه، ويريد لأبيه مكاناً ممتازاً في عالم السياسة العربية، ويقول: «بادر الى هذا الأمر فكن فيه رأساً قبل أن تكون ذنباً ...»

بلى لقد قال محمد الصدق، ومس شغاف قلب أبيه.. وماذا أحب الى ابن العاص من أن يكون رأساً في كل خطوة يقوم بها وألا يأتمر برأي أحد وأن يكون حراً، فلا تؤذيه مضايقة مثل عمرو، وإن معاوية لقادر قدره ورافعه في درجات الرياسة والامارة، ولا يعدم ابن العاص بفكره أن يتسلط بعد ذلك فيكون صاحب الرأي في الجماعة دون معاوية.. وما عسى تفعل «الحية في أصل الشجرة» إلا ذاك.. نعم وليمض على بركة الله

* * *

وكان معاوية في حيرة من أمره لا يدري ما يفعل؛ كان رأيه قد استقر على حرب علي، ولكنه لم يدر كيف يمضي الى ذلك، وقد بدأت دعوة علي تتسرب الى الشام، وأنشأ المسلمون يتحدثون في سر سكوت معاوية عن طاعة الخليفة الجديد، وكان هو نفسه يسكتهم ويهدئهم بما له من المكانة في نفوسهم والقدر في أعينهم، ولكنه كان يحس أن لذلك آخرا وأنهم منفضون من حوله إن لم ينته في هذا الموقف الى رأي، وهل هو إلا وال من الولاة عليه أن يطيع، وقد وصلت دعوة علي وتحدث بها البعض ومال اليها البعض الآخر، وبدأ القلق يساور معاوية، وانتهى به الأمر الى الاستنجاد بابن العاص، وكان يعرف فيه ميلا عن بني هاشم وكرها لهم، وكان يقدر أنه لا بد كاره لأمر علي، فبعث اليه يتعجل حضوره فخف اليه كما رأينا.. وجلس الرجلان يتبادلان الرأي، وربما أحس عمرو من حديث معاوية أنه أخطأ في هذه المناورة التي أقدم عليها، وأن هذه «الصفقة الجديدة» ربما كان فيها بعض الخطر.. ورأى أن ما كان قدره من الاعتماد على جند الشام كان فيه كثير من الوهم وسوء التقدير.. وكيف يمكن إقناع هؤلاء بمناهضة الخليفة وحربه وهم مسلمون مؤمنون يرون طاعة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فرضا واجبا؟ وكيف يمكن التمويل عليهم، وهذه طاعة علي تكاد تبدو على ألسنتهم؟ ولكنه اطمأن الى أن لا خطر على مركزه في هذا الأمر الذي انضم اليه.. فانما هو صاحب الرأي المسموع والكلمة النافذة.. وهاهو ذا يستطيع أن يشترط «أخذ مصر كلها أو مصر ومعها غيرها». وقد تقدم فما ينبغي له أن يتأخر.. وقد ألقى يده في يد معاوية وان يخلص له على بعد ذلك أبدا

ثم إنه مضى يفكر في الأمر تفكيرا طويلا، وقلبه على وجوهه.. حتى هداه الرأي الى حيلة ربما أفلحت في إقناع جند الشام بعدالة قضية معاوية.. فان هؤلاء الناس لا بد أن يكون قد

(١) اليعقوبي ج ١ ص ٢١٥